

التوبة

عناصر الموضوع

٥٦	مفهوم التوبة
٥٧	التوبة في الاستعمال القرآني
٥٨	الألفاظ ذات الصلة
٦٠	اقتران التوبة بالإصلاح والاستغفار
٦٢	التواب من أسماء الله تعالى
٦٣	مجالات التوبة
٧٥	قبول التوبة
٧٩	نماذج من التائبين في القرآن
٨٥	الأسلوب القرآني في الحث على التوبة
٨٩	ثمرات التوبة وعاقبة الإعراض عنها

مفهوم التوبة

أولاً: المعنى اللغوي:

توب: التَّاء والواو والباء كلمة واحدة تدلّ على الرجوع. يقال: تاب من ذنبه، أي رجع عنه، يتوب إلى الله توبةً ومتاباً، فهو تائبٌ. والتَّوب: التَّوبَةُ. قال الله تعالى: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]^(١).

وتاب إلى الله توباً وتوبةً ومتاباً وتابةً وتوبةً: رجع عن المعصية، وهو تائبٌ وتوابٌ، وتاب الله عليه: وقفه للتوبة، أو رجع به من التشديد إلى التخفيف، أو رجع عليه بفضله وقبوله، وهو توابٌ على عباده^(٢).

والتائب يقال لبازل التوبة ولقابل التوبة؛ فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده. والتَّوَاب: العبد الكثير التوبة، وذلك بتركه كل وقت بعض الذنوب على الترتيب حتى يصير تاركاً لجميعه، وقد يقال ذلك لله تعالى؛ لكثرة قبوله توبة العباد حالاً بعد حال^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

التوبة في الشرع: الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة. والتوبة النصوح: ألا يبقى على عمله أثراً من المعصية، سراً وجهراً^(٤). قال الطبري رحمه الله: «التوبة من العبد إلى ربه: إنابته إلى طاعته، وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يسخطه من الأمور التي كان عليها مقيماً مما يكرهه ربه، فكذلك توبة الله على عبده هو أن يرزقه ذلك، ويتوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه»^(٥).

وهذا التعريف في الاصطلاح لا يخرج عن معناه في اللغة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١ / ٣٥٧.

(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٦٢.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٦٩.

(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٧٠.

(٥) جامع البيان، الطبري، ١ / ٥٨٧.

التوبة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (توب) في القرآن (٨٧) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٤	﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [التوبة: ١١٧]
الفعل المضارع	٢١	﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧]
الفعل الأمر	٨	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحریم: ٨]
المصدر	٨	﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]
اسم الفاعل	٢	﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُتَكِنُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]
صيغة المبالغة	١٢	﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]

وجاءت التوبة في القرآن على وجهين^(٢):

أحدها: الندم على فعل الشيء والرجوع عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ
تَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. يعني: ندمت ورجعت إليك.
والثاني: التجاوز، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]. يعني:
يتجاوز عنكم.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٦-١٥٨، المعجم المفهرس
الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٣٦٩-٣٧١.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدماغي، ص ٢٣٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاعتذار:

الاعتذار لغة:

(اعتذر) فلان: صار ذا عذر، وإليه: طلب قبول معذرتة، ويقال: اعتذر من ذنبه واعتذر عن فعله: تنصل واحتج لنفسه^(١).

الاعتذار اصطلاحًا:

تحري الإنسان ما يمحو به أثر ذنبه، وذلك ثلاثة: الأول: أن يقول: لم أفعل أو فعلت لأجل كذا، فيذكر ما يخرج به عن كونه ذنبًا، الثاني: أن يقول: فعلت ولا أعود ونحو ذلك، والثالث: هو التوبة، فكل توبة عذر ولا عكس^(٢).

الصلة بين التوبة والاعتذار:

التوبة من الذنب الذي لا عذر في اقترافه، والمعتذر يذكر أن له في ما أتاه من المكروه عذرًا، ولو كان الاعتذار التوبة لجاز أن يقال: اعتذر إلى الله، كما يقال: تاب إليه، وأصل العذر: إزالة الشيء عن جهته، أي: أزال ما كان في نفسه عليه في الحقيقة أو في الظاهر^(٣).

٢ الندم:

الندم لغة:

(ندم) على الأمر ندمًا وندامة: أسف وكرهه بعدما فعله فهو نادم^(٤).

الندم اصطلاحًا:

التحسر من تغير رأي في أمر فائت^(٥).

الصلة بين الندم والتوبة:

التوبة من الندم؛ وذلك أنك قد تندم على الشيء ولا تعتقد قبحه، ولا تكون التوبة من غير قبح، فكل توبة ندم، وليس كل ندم توبة^(٦).

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٥٩٠ / ٢.

(٢) انظر: التوقيف، المناوي ص ٧٤.

(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ١ / ٢٣٥.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٩١١ / ٢.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٩٦.

(٦) الفروق اللغوية، العسكري، ١ / ٢٣٥.

٣ الاستغفار:

الاستغفار لغة:

(استغفر): أي طلب المغفرة، واستغفر الله ذنبه: طلب منه غفره^(١)، وفي اللغة العربية إذا دخلت السين والتاء على الفعل أفادت معنى الطلب.

وبهذا، فإن معنى الاستغفار في اللغة: طلب السّتر، وطلب ترك المؤاخذه على الذّنب.

الاستغفار اصطلاحاً:

طلب ستر الذنب بالعفو عنه، وعدم العقوبة عليه^(٢).

الصلة بين التوبة والاستغفار:

قال ابن القيم: «الاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله»^(٣).

٤ الإصرار:

الإصرار لغة:

(أصر) على الأمر: ثبت عليه ولزمه، وأكثر ما يستعمل في الآثام^(٤).

الإصرار اصطلاحاً:

وهو: التّعقد في الذّنب والتّشدّد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَقْلُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

الصلة بين التوبة والإصرار:

علاقة تضاد، فالعبد إذا عصى وطال زمان التوبة وقع في الإصرار، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، أي تبتدئ التوبة من زمان قريب من زمان المعصية؛ لئلا يقع في الإصرار^(٥).

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣٢٧٤ / ٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨٥ / ٣، روح المعاني، الألوسي ٢٠٧ / ١١.

(٣) مدارج السالكين ٣٠٨ / ١.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٥١٢ / ١.

(٥) الدر المصون، السمين الحلبي ٦٢٤ / ٣.

اقتران التوبة بالإصلاح والاستغفار

أولاً: اقتران التوبة بالإصلاح:

قرن الله سبحانه بين التوبة والإصلاح في مواضع من كتابه، منها: قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَهَا مِنْكُمْ فَتَأْذُوهُمْ فَإِنْ تَابُوا وَأَصْلَحُوا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ عَلَىٰ نَفْسِي الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ

عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٥].

فلايات تدل دلالة واضحة على أنه ليس المقصود بالتوبة ترك القبيح فحسب، بل يجب فعل الحسن، وهو الإصلاح.

ومن أجل ذلك شرط سبحانه وتعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى؛ ليضلوا الناس بذلك، شرط أن يصلحوا العمل في نفوسهم، ويبينوا للناس ما كانوا يكتُمونهم إياه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّانِعُونَ﴾ [١٥٨] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠].

وشرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياءً وسمعةً: أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم رياءً وسمعةً،

وباطناً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً؛ ندماً على ما مضى، وتركاً في الحال، وعزماً على أن لا يعود، والاستغفار: طلب المغفرة من الله، فإن اقترن به توبة فهو الاستغفار الكامل الذي رُتبت عليه المغفرة، وإن لم تقترن به التوبة فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له، فقد يجاب دعاؤه وقد لا يجاب، وهو بنفسه عبادة من العبادات، فهو دعاء عبادة، ودعاء مسألة^(٣).

فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها^(١)، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك أعمالاً طلب الله فيها التوبة فقط، وأعمالاً طلب فيها التوبة والإصلاح، وأعمالاً طلب فيها التوبة والإصلاح والبيان.

ثانياً: اقتران التوبة بالاستغفار:

قرن الله سبحانه وتعالى بين التوبة والاستغفار على ألسنة رسله.

قال محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

وقال هود عليه السلام: ﴿وَيَقُولُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢].

وقال صالح عليه السلام: ﴿فَأَسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١].

وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٩٠].

الاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله^(٢).

وقيل في العلاقة بينهما: التوبة: هي الرجوع إلى الله مما يكرهه الله ظاهراً

(٣) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ٢ / ٣٦٤.

(١) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١٧.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ١ / ٣٤٥.

التوب من أسماء الله تعالى

اشتق الله سبحانه وتعالى من التوبة اسمًا له، وهو التَّوَاب؛ دلالة على عظم التوبة وفضلها:

أولاً: معنى اسم الله التَّوَاب:

قال الطبري رحمه الله: «إن الله جل ثناؤه هو التَّوَاب على من تاب إليه من عباده المذنبين من ذنوبه، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه»^(١).

وجاء (تَوَاب) على أبنية المبالغة لقبوله توبة عباده، وتكرير الفعل منهم دفعة بعد دفعة، وواحدًا بعد واحد على طول الزمان، وقبوله عز وجل ممن يشاء أن يقبل منه؛ فلذلك جاء على أبنية المبالغة، فالعبد يتوب إلى الله عز وجل ويقطع عن ذنوبه، والله يقبل توبته. فالعبد تائب والله تَوَاب^(٢).

وقال ابن القيم في نونيته^(٣):

وكذلك التَّوَاب من أوصافه

والتَّوَاب في أوصافه نوعان

إذن بتوبة عبده وقبولها

بعد المتاب بمئة المنان

ويقول السعدي رحمه الله: «فهو التائب

على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة، والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم»^(٤).

ثانياً: الأسماء المقترنة باسمه التَّوَاب:

ورد اسم الله سبحانه وتعالى (التَّوَاب) في إحدى عشرة آية في القرآن الكريم^(٥):

١. الرحيم.

اقترن اسم التَّوَاب باسم الرحيم في (٩) آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا فِي يَدَيْهِمْ جَاءُوا رَبَّهُمْ فَسَطَّ عَلَى رَبِّهِمْ أَسَفًا لِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى تَوْبَةِ اللَّهِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحجرات: ١٢].

ومناسبة هذا الاقتران: أن توبة الله على عباده وتوفيقهم إليها ثم قبولها منهم، هو من آثار رحمته تعالى وبره وإحسانه.

قال الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُّ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]:

«إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفق من أحب توفيقه منهم

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٦.

(٥) المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٣٧٠.

(١) جامع البيان، الطبري، ١ / ٥٨٧.

(٢) اشتقاق أسماء الله، ص ٦٢.

(٣) الكافية الشافية، ابن القيم ص ٢٠٩.

مجالات التوبة

تَنَوَّعت مجالات التوبة وتَنَوَّعت معها شروطها. وشرط التوبة من ذنب هي فعل ضده، فشرط توبة المشرك: الإيمان؛ لأن ذنبه الإشراك، وشرط توبة المنافق الإخلاص؛ لأن ذنبه الرياء، وشرط توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى: البيان، وتوبة القاذف إكذابه نفسه؛ ليتنفي عن المقذوف العار الذي ألحقه به بالقذف. وسوف نوضح مجالات التوبة فيما يلي:

أولاً: التوبة عن الشرك والكفر:

أرسل الله الأنبياء والرسل لدعوة أقوامهم إلى التوبة من الشرك والكفر، بأمرهم بالاستغفار من الشرك ثم بالتوبة من بعده:

قال هود عليه السلام: ﴿وَيَقُولُ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

أي: آمنوا به حتى يغفر لكم ذنوبكم. والاستغفار: هو الإيمان بالله في هذا الموضع؛ لأن هوداً عليه السلام إنما دعا قومه إلى توحيد الله؛ ليغفر لهم ذنوبهم، ثم توبوا إلى الله من سالف ذنوبكم وعبادتكم غيره بعد الإيمان به^(٥).

(٥) جامع البيان، الطبري، ١٢ / ٤٤٤.

لما يرضيه عنه، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم التوبة والإنابة ولا يتوب عليه^(١).

وقال السعدي رحمه الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، ﴿الرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية^(٢).

٢. الحكيم.

اقترن اسم التواب باسم الحكيم مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠].

فهو ﴿تَوَّابٌ﴾ يقبل العاصين منكم، ويردهم إلى دائرة المؤمنين الصالحين، إذا هم تابوا وأصلحوا، وهو سبحانه: ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حدّ من حدود ورصد من عقوبات، للمعتدين على حدوده^(٣).

وفي ذكر وصف ﴿حَكِيمٌ﴾ هنا مع وصف ﴿تَوَّابٌ﴾ إشارة إلى أن في هذه التوبة حكمة، وهي استصلاح الناس^(٤).

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢ / ٥٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٤.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٩ / ١٢٢٦.

(٤) التحرير والتنوير، ١٨ / ١٣٥.

والذنب الذي طلب هود عليه السلام قومه التوبة منه هو ذنب الشرك، قال أبو بكر الأصم: «استغفروا: أي سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم، ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى، وبالعزم على أن لا تعودوا إلى مثله»^(١).

وقال صالح عليه السلام: ﴿يَقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

«اعملوا عملاً يكون سبباً لستر الله عليكم ذنوبكم، وذلك الإيمان به، وإخلاص العبادة له دون ما سواه واتباع رسوله صالح، ثم اتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم إلى ما يرضاه ويحبه، إن ربي قريب ممن أخلص له العبادة ورغب إليه في التوبة، مجيب له إذا دعاه»^(٢).

ويظهر من ختام الآية بجملة: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ أنهم استعظموا أن يكون جرمهم مما يقبل الاستغفار عنه، فطمأنهم صالح عليه السلام إلى استجابته سبحانه وتعالى لتوبتهم إذا تابوا وقبولها منهم.

ويستفاد من الآيات أنه: يجب على كل داع إلى الله أن يحبب عباد الله إلى خالقهم، وييسرهم بحبه سبحانه لتوبتهم واستجابته

ممن تاب إليه.

وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

واستغفروا ربكم من سالف الذنوب، ثم توبوا إليه فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي: لمن تاب وأناب^(٣). ويستفاد من الآية: أن الله شديد المحبة لمن يتقرب إليه بالتوبة.

وأخبر سبحانه وتعالى أن الذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي، ثم رجعوا من بعد فعلها إلى الإيمان والعمل الصالح، فإنه سبحانه وتعالى من بعد التوبة النصوح لغفور لأعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣].

هذا خبر من الله تعالى ذكره أنه قابل من كل تائب إليه من ذنب أتاه صغيرة كانت معصيته أو كبيرة، كفرًا كانت أو غير كفر، كما قبل من عبدة العجل توبتهم بعد كفرهم به بعبادتهم العجل، وارتدادهم عن دينهم^(٤).

ويستفاد من الآية: أنه سبحانه وتعالى يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤ / ٢٩٧.

(٤) جامع البيان، الطبري، ١٠ / ٤٦٥.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨ / ٣٦٣.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٢ / ٤٥٣.

تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ وَتَبَيَّرَ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْإِيمِ [التوبة: ٣].

«يقول تعالى: فإن تبتم من كفركم أيها المشركون، ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد، فالرجوع إلى ذلك خير لكم من الإقامة على الشرك في الدنيا والآخرة، وإن أدبرتم عن الإيمان بالله وأبيتم إلا الإقامة على شرككم، فأيقنوا أنكم لا تفيتون الله بأنفسكم من أن يحل بكم عذابه الأليم وعقابه الشديد على إقامتكم على الكفر، كما فعل بذويكم من أهل الشرك، من إنزال نقمه به وإحلاله العذاب عاجلاً بساحته، وأعلم يا محمد الذين جحدوا نبوتك وخالفوا أمر ربهم بعذاب موجه يحل بهم»^(٢).

والترغيب والترهيب في آية البراءة يشير إلى أن المنهج الإسلامي منهج هداية قبل كل شيء، فهو يتيح للمشركين هذه المهلة لا لمجرد أنه لا يحب أن يباغتهم ويفتك بهم متى قدر - كما كان الشأن في العلاقات الدولية ولا يزال! - ولكنه كذلك يمهلهم هذه المهلة للتروي والتدبر، واختيار الطريق الأقوم، ويرغبهم في التوبة عن الشرك والرجوع إلى الله، ويرهبهم من التولي، ويثبهم من جدواه، وينذرهم بالعذاب الأليم في الآخرة فوق الخزي في

وأخبر سبحانه وتعالى إن رجع المشركون عن كفرهم، ودخلوا الإسلام، والتزموا شرائعه من إقام الصلاة وإخراج الزكاة، فتركوهم، فقد أصبحوا إخوانكم في الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

﴿فَإِن تَابُوا﴾ من شركهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوها بحقوقها ﴿وَأَتَوُا الزَّكَاةَ﴾ لمستحقيها ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر الشرك فما دونه، للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه^(١).

ورغب سبحانه وتعالى المشركين في التوبة، ورهبهم من الاستمرار على الشرك، فقال: ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ

(٢) جامع البيان، الطبري، ١١ / ٣٤٠.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٢٩.

الدنيا. ويوقع في قلوبهم الزلزلة التي ترجها رجًا، لعل الركاب الذي ران على الفطرة أن ينفض عنها، فتسمع وتستجيب^(١).

ثانيًا: التوبة عن النفاق:

استثنى الله سبحانه وتعالى من الوعيد بالدرك الأسفل من النار من آمن من المنافقين، وأصلح حاله، واعتصم بالله دون الاعتزاز بالكافرين، وأخلص دينه لله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝

[النساء: ١٤٥-١٤٦].

يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب، فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق

إلا من من الله عليهم بالتوبة من السيئات، وأصلحوا له الظواهر والبواطن، والتجأوا إلى الله في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾ فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وتأمل كيف خصّ الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾؛ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح؛ لشدة الحاجة إليهما خصوصًا في هذا المقام الحرج، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيًا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأن هذه القاعدة الشريفة لم يزل الله يبدئ فيها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٩٩.

ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولثلاثا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم^(١).

والمتمدبر لآيات التوبة في مواضعها في القرآن يلحظ أنه «كان يكفي بأن يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾» فالتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله، ولكنه هنا ينص على الاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله؛ لأنه يواجه نفوساً تذبذبت، ونافقت، وتولت غير الله، فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح، على التجرد لله، والاعتصام به وحده، وإخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة، وتلك الأخلاق المخلخلة.. ليكون في الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك، وفي الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وَمَا تَقْصُوا إِلَّا أَنْ تُغْنِيَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿التوبة: ٧٤﴾.

قال أبو جعفر: «اختلف أهل التأويل في الذي نزلت فيه هذه الآية، والقول الذي كان قاله، الذي أخبر الله عنه أنه يحلف بالله ما قاله، ثم قال: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى أخبر عن المنافقين أنهم يحلفون بالله كذباً على كلمة كفر تكلموا بها أنهم لم يقولوها، وجائز أن يكون ذلك القول ما روي عن عروة أن الجلاس قاله، وجائز أن يكون قائله عبد الله بن أبي بن سلول، والقول ما ذكره قتادة عنه أنه قال، ولا علم لنا بأن ذلك من أي، إذ كان

والمتمدبر لآيات التوبة في مواضعها في القرآن يلحظ أنه «كان يكفي بأن يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾» فالتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله، ولكنه هنا ينص على الاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله؛ لأنه يواجه نفوساً تذبذبت، ونافقت، وتولت غير الله، فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح، على التجرد لله، والاعتصام به وحده، وإخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة، وتلك الأخلاق المخلخلة.. ليكون في الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك، وفي الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد.

بذلك تخف تلك الثقل التي تهبط بالمنافقين في الحياة الدنيا إلى اللصوق بالأرض، وتهبط بهم في الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار.

وبذلك يرتفع التائبون منهم إلى مصاف

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢ / ٧٨٥.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١١.

لا خبر بأحدهما يوجب الحجة ويتوصل به إلى يقين العلم به، وليس مما يدرك علمه بفطرة العقل، فالصواب أن يقال فيه كما قال الله جل ثناؤه: ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] ^(١).

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة رفقا بهم ولطفًا بالرغم من أفعالهم العظيمة، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٧٤]. فإن يتب هؤلاء القائلون كلمة الكفر من قيلهم الذي قالوه فرجعوا عنه، يك رجوعهم وتوبتهم من ذلك خيرًا لهم من النفاق، وإن يدبروا عن التوبة فإبوابها، ويصروا على كفرهم يعذبهم عذابًا موجعًا في الدنيا، إما بالقتل، وإما بعاجل خزي لهم فيها، ويعذبهم في الآخرة بالنار ^(٢).

وفي الآية دلالة أنه لا يحصل الخير إلا عند التوبة؛ لأن التوبة أصل السعادة في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: التوبة عن المعاصي:

أخبر سبحانه وتعالى أن العبد إذا تاب من أمهات الكبائر: الشرك والقتل والزنا، وفقه للتوبة وقبلها منه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ

إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

روى مسلم بسنده، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو لحسن، ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ^(٣).

ومعنى الآية: «والذين لا يعبدون مع الله إلها آخر فيشركون في عبادتهم إياه، بل يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة، ولا يقتلون النفس بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها، كالكفر بعد الإيمان، والزنا بعد الإحصان، وقتل النفس بغير حق، ولا يأتون ما حرم الله عليهم إتيانه من الفروج، ومن يفعل خصلة من خصال الفجور السالفة، يلقي في الآخرة

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والمج، ١/ ٣٠٥، رقم ١٧٤.

(١) جامع البيان، ١١/ ٥٧٢.

(٢) المصدر السابق ١١/ ٥٧٥.

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ
كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ
فَذِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ. وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مُؤْمِنَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَيَسَاءَ شَهْرَتَيْنِ
مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا [النساء: ٩٢].

اختلف المفسرون فيمن نزلت: منهم من
قال: نزلت في عياش بن أبي ربيعة وقتيله.
قال السدي: «نزلت في عياش بن أبي
ربيعة المخزومي، فكان أخا لأبي جهل بن
هشام لأمه، وإنه أسلم وهاجر في المهاجرين
الأولين قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه
وسلم، فطلبه أبو جهل والحارث بن هشام
ومعهما رجل من بني عامر بن لؤي، فأتوه
بالمدينة، وكان عياش أحب إخوته إلى أمه،
فكلموه وقالوا: إن أمك قد حلفت أن لا
يظلها بيت حتى تراك وهي مضطجعة في
الشمس، فأتها لتنظر إليك ثم ارجع.

وأعطوه موثقاً من الله لا يحجزونه حتى
يرجع إلى المدينة، فأعطاه بعض أصحابه
بعيراً له نجيباً، وقال: إن خفت منهم شيئاً
فاقعد على النجيب، فلما أخرجوه من
المدينة أخذوه فأوثقوه، وجلده العامري،
فحلف ليقتلن العامري. فلم يزل محبوساً
بمكة حتى خرج يوم الفتح، فاستقبله العامري
وقد أسلم ولا يعلم عياش بإسلامه، فضربه
فقتله، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ

جزاء إثمه وذنبه الذي ارتكبه، بل سيضاعف
له ربه العذاب يوم القيامة ويجعله خالداً أبداً
في النار مع المهانة والاحتقار، فيجتمع له
العذاب الجسمي والعذاب الروحي. وبعد
أن أتم تهديد الفجار على هذه الأوزار أتبعه
بترغيب الأبرار في التوبة والرجوع إلى
حظيرة المتقين فيفوزون بجنات النعيم،
فقال: لكن من رجع عن هذه الآثام مع
إيمانه وعمله الصالحات فأوثقك يمحو الله
سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت لهم لواحق
طاعته، ومن تاب عن المعاصي التي فعلها،
وندم على ما فرط منه، وزكى نفسه بصالح
الأعمال، فإنه يتوب إلى الله توبة نصوحاً،
مقبولة لديه، ماحية للعقاب، محصلة لجزيل
الثواب، إلى أنه ينير قلبه بنور من عنده يهديه
إلى سواء السبيل، ويوفقه للخير، ويبعده عن
الضير»^(١).

❁ التوبة من القتل خطأ.

أخبر سبحانه وتعالى بأنه لا يحق لمؤمن
الاعتداء على أخيه المؤمن وقتله بغير حق،
إلا أن يقع منه ذلك على وجه الخطأ الذي لا
عمد فيه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ
مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَذِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا
أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ

(١) تفسير المراغي، ١٩ / ٤٠.

يَقْتُلُ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً ﴿١﴾ يقول: وهو لا يعلم أنه مؤمن ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ فيتركوا الدية»^(١).

وقال آخرون: نزلت في أبي الدرداء: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ الآية. قال: نزل هذا في رجل قتل أبو الدرداء كانوا في سرية، فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له، فوجد رجلاً من القوم في غنم له، فحمل عليه بالسيف، فقال: لا إله إلا الله قال: فضربه ثم جاء بغنمه إلى القوم. ثم وجد في نفسه شيئاً، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا شققت عن قلبه؟) فقال: ما عسيت أجد. هل هو يا رسول الله إلا دم أو ماء؟ قال: (فقد أخبرك بلسانه، فلم تصدقه) قال: كيف بي يا رسول الله؟ قال: (فكيف بلا إله إلا الله؟) قال: فكيف بي يا رسول الله؟ قال: (فكيف بلا إله إلا الله؟) حتى تمنيت أن يكون ذلك مبتدأ إسلامي. قال: ونزل القرآن: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ حتى بلغ: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ قال الطبري رحمه الله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عرّف عباده بهذه الآية ما على من قتل مؤمناً خطأ من

كفارة ودية. وجائز أن تكون الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة وقتيله، وفي أبي الدرداء وصاحبه. وأي ذلك كان: فالذي عنى الله تعالى بالآية تعريف عباده ما ذكرنا، وقد عرف ذلك من عقل عنه من عباده تنزيهه، وغير ضائرهم جهلهم بمن نزلت فيه»^(٢).

ومعنى الآية: «على القاتل الخطأ» ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء، ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزئ عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعته، ويقاؤه في الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص من استحققت منفعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير.

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد ﴿مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ جبراً لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما ترك.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أي: يتصدق ورثة القاتل بالعفو عن الدية، فإنها

(١) جامع البيان، ٧ / ٣٠٨.

(٢) المصدر السابق ٧ / ٣١٠.

وأي محل كان^(١).

✽ التوبة من الذنوب.

أخبر الله سبحانه أنه يقبل التوبة من الذين يرتكبون المعاصي والذنوب بجهل منهم لعاقبتها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُؤْمِنُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

المعنى: ما التوبة على الله لأحد من خلقه إلا للذين يأتون ما يأتونه من ذنوبهم جهالة منهم وهم بربهم مؤمنون، ثم يرجعون طاعة الله ويتوبون منه إلى ما أمرهم الله به من الندم عليه والاستغفار، وترك العود إلى مثله من قبل نزول الموت بهم^(٢)، فالله سبحانه لا يطارد عباده الضعاف، ولا يطردهم متى تابوا إليه وأنابوا. وهو سبحانه غني عنهم، وما تنفعه توبتهم، ولكن تنفعهم هم أنفسهم، وتصلح حياتهم وحياة المجتمع الذي يعيشون فيه. ومن ثم يفسح لهم في العودة إلى الصف تائبين متطهرين^(٣).

وأجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل معصية هي بجهالة عمدًا كانت أو جهلاً^(٤).

تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو؛ لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت ﴿فَإِنْ كَانَتْ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ﴾ أي: من كفار حربيين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي:

وليس عليكم لأهله دية؛ لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم ﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما

لهم من العهد والميثاق ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسرًا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير

عذر، فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التابع، كالمرض والحيض ونحوهما. وإن كان لغير عذر انقطع التابع ووجب عليه استئناف الصوم. ﴿تَوْبَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل

توبة من الله على عباده ورحمة بهم، وتكفيرًا لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي:

كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي وقت كان

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٩٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥٠٧.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٦٠٤.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٤.

قبول التوبة لا يجب على الله عقلاً، وأما من جهة السمع فتضافرت ظواهر الآي والسنة على قبول الله التوبة، وأفادت القطع بذلك^(١).

اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وذهب الجمهور إلى أنها تصح من ذنب دون ذنب؛ خلافاً للمعتزلة^(٢).
* التوبة من الربا.

أخبر سبحانه وتعالى أن المرابي محارب لله ورسوله، قد أذنه الله بحربه.
قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٢٧٨] فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

أي: عقاب شديد من نوع الحروب، فإن الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص يقدر الإمام عليه قبض عليه وأجرى عليه حكم الله: من التعزير والحبس، إلى أن تظهر منه التوبة، وإن كان له عسكر وشوكة حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية، وكما حارب أبو بكر رضي الله عنه مانعي

الزكاة^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ يعني إن تركتم الربا وتبتم إلى الله منه، وقد عاقدتم عليه، فإنما لكم رؤوس أموالكم، لا تزدادون عليها فتظلمون الآخذ، ولا تنقصون منها فيظلمكم من أخذها^(٤).
* التوبة عن السرقة.

أخبر سبحانه وتعالى أنه من تاب من بعد سرقة، وأصلح في كل أعماله، فإن الله يقبل توبته.

قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٢٨] فَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨-٣٩].

يقول جل ثناؤه: من رجع من هؤلاء السارق عما يكرهه الله من معصيته إياه إلى ما يرضاه من طاعته من بعد ظلمه، وظلمه: هو اعتداؤه وعمله ما نهاه الله عنه من سرقة أموال الناس، وأصلح نفسه بحملها على مكروهاها في طاعة الله والتوبة إليه مما كان عليه من معصيته، فإن الله عزو جل يرجعه إلى ما يحب ويرضى عما يكرهه ويسخط من معصيته، إن الله -عز ذكره- سائر على من تاب وأناب عن معاصيه إلى طاعته ذنوبه

(٣) تفسير آيات الأحكام، السائيس، ص ١٨٠.
(٤) التفسير القيم، ابن القيم، ص ١٧٥.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٦٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٥٠٥.

﴿التَّوْبُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

عن وهيب بن الورد أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَقَعُ
إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّا إِنَّاكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع
قوائم بيت الرحمن، وأنت مشفق أن لا يتقبل
منك^(٥).

وقال تعالى عن رحمته بالنبي
والمهاجرين والأنصار: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى
النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ
اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ
يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ
بِهِمْ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

قال ابن عطية رحمه الله: «التوبة من الله
رجوعه بعبده من حالة إلى أرفع منها، فقد
تكون في الأكثر رجوعاً من حالة طاعة إلى
أكمل منها، وهذه توبته في هذه الآية على
النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه رجع به من
حاله قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمل
مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله، وأما
توبته على «المهاجرين والأنصار» فحالها
معرضة، لأن تكون من تقصير إلى طاعة
وجد في الغزو ونصرة الدين، وأما توبته
على الفريق الذي كاد أن يزيغ فرجوع من
حالة محطوطة إلى حال غفران ورضا»^(٦).

بالعفو عن عقوبته عليها يوم القيامة، وتركه
فضيخته بها على رؤوس الأشهاد، رحيم به
وبعباده التائبين إليه من ذنوبهم^(١).

قال الشافعي: «إذا تاب السارق قبل أن
يتلبس الحاكم بأخذه، فتوبته ترفع عنه حكم
القطع قياساً على توبة المحارب»^(٢). «فأما
أموال الناس فلا بد من ردّها إليهم أو بدلها
عند الجمهور»^(٣)، أو الاستحلال منها^(٤).

رابعاً: التوبة عن التقصير:

المؤمن الحق لا يمكنه القطع أنه أتى
بالعبادات كما ينبغي، فخوف التقصير ملازم
له طالما فيه عين تطرف، وقلب ينبض، وقد
يحدث التقصير: إما على سبيل السهو، أو
على سبيل ترك الأولى.

وهذا الخلق من شيم الكرماء، يأتون
بأبلغ وجوه الكرم ويستقلونه، ويعتذرون
من التقصير، وفي قمة هؤلاء: الأنبياء عليهم
السلام، والصحابة الكرام رضي الله عنهم.

وقد ذكر الله لنا أن إبراهيم وإسماعيل
عليهما السلام طلبا التوبة بالرغم من أنهما
قاما ببناء قواعد البيت بتكليف إلهي، قال
تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا
أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ

(١) جامع البيان، الطبري، ٨ / ٤١١.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ١٩٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣ / ١٠٠.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٤ / ٢٥٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١ / ٣٠٢.

(٦) المحرر الوجيز، ٣ / ٩٢.

هذا وقد حكى الله تعالى لنا عن حال المؤمنين الخُلص في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

أي: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات وقلوبهم وجلة^(١). في الآيات: دلالة على أنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى الأنبياء عليهم السلام والمهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، والخُلص من المؤمنين.

خامساً: التوبة عن كتمان العلم:

أخبر سبحانه وتعالى أن من شروط قبول توبة كاتم العلم أن يصلح ما أفسده، وأن يبين ما كتمه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أَُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّانِعُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

أي: إن أهل الكتاب الذين كتموا أمر الإسلام وأمر محمد صلى الله عليه وسلم وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل بيّناً واضحاً، يستحقون الطرد

والبعد من رحمة الله، ويستوجبون بأعمالهم الدعاء عليهم باللعن من الملائكة والناس أجمعين. وحكم هذه الآية شامل لكل من كتم علماً فرض الله بيانه للناس، ومن هنا ترى أن الذي يرى حرمة الله تنتهك أمام عينيه، والدين يداس جهازاً بين يديه، ويرى البدع تمحو السنن، والضلال يغشى الهدى، ثم هو لا ينتصر بيد ولا لسان، يكون ممن يستحق وعيد الآية.

ثم استثنى سبحانه وتعالى من الوعيد من تاب إليه: فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: إلا من أناب عن كتمان، وراجع التوبة بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وأقر بنبوته، وصدّق ما جاء به من عند الله، وأصلح حال نفسه بالتقرب إلى الله بصالح الأعمال، وبيّن ما علم من وحي الله إلى أنبيائه، وما عهد إليهم في كتبه، فلم يكتمه ولم يخفه، فهؤلاء يتوب الله عليهم، ويفيض عليهم مغفرته تفضلاً منه ورحمة، وهو الذي يرجع قلوب عباده المنصرفه عنه ويردّها إليه بعد إدبارها عن طاعته، وهو الرحيم بالمقبلين عليه يتغمدهم برحمته ويشملهم بعفوه، ويصفح عما كانوا اجترحوا من السيئات. وفي الآية: ترغيب للقلوب الواعية التي تخاف سخط الله وشديد عقابه في التوبة عما فرط من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٠٢.

قبول التوبة

أخبر سبحانه وتعالى أنه غافر الذنب للمذنبين، وقابل التوب من التائبين، قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣].

عطف قابل التوب على صفة غافر الذنب؛ لإفادة أنه يجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيجعلها له طاعة، وبين أن يمحو عنه بها الذنوب التي تاب منها وندم على فعلها، فيصبح كأنه لم يفعلها. وهذا فضل من الله (٤).

وأخبر الله سبحانه وتعالى أنه هو وحده الذي يقبل التوبة عن عباده إذا رجعوا إلى توحيده وطاعته.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

يقول تعالى ذكره: والله الذي يقبل مراجعة العبد إذا رجع إلى توحيد الله وطاعته من بعد كفره، ويعفو أن يعاقبه على سيئاته من الأعمال، وهي معاصيه التي تاب منها، ويعلم ربكم أيها الناس ما تفعلون من خير وشر، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو مجازيكم على كل ذلك جزاءه، فاتقوا

الذنوب، وطرده لليأس من رحمة الله مهما ثقلت الذنوب وكثرت الآثام (١).

وفي هذه الآية: دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه (٢)، وتوبته أن يبين للناس أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، ولا يكفي اعترافه وحده أو في خلواته.

قال ابن عاشور رحمه الله: «فالعالم يحرم عليه أن يكتف من علمه ما فيه هدى للناس؛ لأن كتم الهدى إيقاع في الضلالة، سواء في ذلك العلم الذي بلغ إليه بطريق الخبر كالقرآن والسنة الصحيحة، والعلم الذي يحصل عن نظر كالأجتهادات إذا بلغت مبلغ غلبة الظن بأن فيها خيراً للمسلمين، ويحرم عليه بطريق القياس الذي توميء إليه العلة أن يثبت في الناس ما يوقعهم في أوهام بأن يلقنوها وهو لا يحسن تنزيلها ولا تأويلها، وكذلك كل ما يعلم أن الناس لا يحسنون وضعه» (٣).

(١) تفسير المراغي، ٢ / ٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١ / ٣٤٣.

(٣) التحرير والتنوير، ٢ / ٧٢.

(٤) المصدر السابق ٢٤ / ٨٠.

الله في أنفسكم، واحذروا أن تركبوا ما تستحقون به منه العقوبة^(١). ومن الحكمة في استخدام الحرف (عن) بدلاً من (من) في قوله تعالى: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ أن التوبة التي يقبلها الله من عباده تضع عنهم ما حملوا به من أوزار، وما أثقل كاهلهم من ذنوب، فكان في قبول التوبة منهم رفع لهذه الآثام عنهم، ولهذا ضُمَّن الفعل (يقبل) معنى الفعل يضع، أو يسقط.. ونحو هذا، كما نظر إلى التوبة على أنها شيء محتمل بالذنوب والآثام؛ لأن التوبة لا تكون إلا عن ذنب وقع، أو إثم اقترف.. فكان قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ يعني: ألم يعلموا أن الله يضع الذنوب والآثام عن عباده^(٢).

شروط قبول التوبة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

ذكرت الآية لقبول التوبة قيتين: ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ و﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾.

والجهالة تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية، وهي

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٠ / ٥٠٦.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ٨٩٠ / ٦.

ما قابل الحلم؛ ولذلك تطلق الجهالة على الظلم. قال عمرو بن كلثوم^(٣):

ألا لا يجهلن أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال تعالى حكاية عن يوسف: ﴿وَالَا

تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

والمراد هنا ظلم النفس^(٤). وعلى ذلك فالجهالة: سفاهة وقلة تحصيل أدى إلى المعصية^(٥).

وقوله: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ إلى وقت الذنب، ومدة الحياة كلها.

وجمهور المفسرين على أنها التوبة قبل المعاينة، قال عكرمة: قبل الموت، وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت، وقال السدي والكلبي: أن يتوب في صحته قبل مرض موته^(٦).

وقد روى الترمذي بسنده عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغْ)^(٧).

(٣) البيت من معلقته المشهورة.

انظر: ديوان عمرو بن كلثوم ص ٧٨.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤ / ٢٧٨.

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ٢٤.

(٦) مدارج السالكين، ابن القيم ١ / ٢٩٥.

(٧) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات،

باب إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغ، رقم

٣٥٣٧.

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٩٠٣.

أهل الإصرار على معاصي الله، ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ يقول: إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاین ملائكة ربه قد أقبلوا إليه لقبض روحه قال: وقد غلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه يشغله بكرب حشرجته وغرغرتة: ﴿إِنِّي تَبْتُ الْفَنَ﴾، يقول: فليس لهذا عند الله تبارك وتعالى توبة؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة^(٣).

وسنة الله عز وجل أن العبد إذا عاین الانتقال الى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع^(٤)؛ وذلك أن التوبة في هذه الحالة توبة المضطر، لجّت به الغواية، وأحاطت به الخطيئة، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب، ولا فسحة لمقارفة الخطيئة. وهذه لا يقبلها الله؛ لأنها لا تنشيء صلاحًا في القلب ولا صلاحًا في الحياة، ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه.

﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، وهؤلاء قد قطعوا كل ما بينهم وبين التوبة من وشيجة، وضيعوا كل ما بينهم وبين المغفرة من فرصة^(٥).

وأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يقبل التوبة عندما يأتي بعض أشرار الساعة وعلاماتها الدالة على مجيئها، وهي طلوع الشمس

ولنما صحت التوبة من العبد في هذا الوقت؛ لأن الرجاء فيه باق، ويصح منه الندم، والعزم على ترك الفعل^(١).

ولا خلف في وعده سبحانه وتعالى على قبول توبة العبد «إذا كانت بشروطها المصححة لها، وهي أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على ألا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياء من الله تعالى لا من غيره، فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة. وقد قيل من شروطها: الاعتراف بالذنب وكثرة الاستغفار»^(٢).

عدم قبول التوبة:

أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يكون قبول التوبة من الذين يصرون على ارتكاب المعاصي، ولا يرجعون إلى ربهم إلى أن تأتيتهم سكرات الموت، ولا تقبل توبة الذين يموتون وهم كافرون.

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ من

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٩١.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥١٦.

(٤) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨٣.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٦٠٤.

من مغربها، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أفلح عما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [٨٤] ﴿فَلَرَبُّكَ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتُ اللَّهِ أَلَّا يَدْخُلَ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤ - ٨٥] (١).

قال جمهور أهل التأويل: الآية التي لا تنفع التوبة من الشرك أو من المعاصي بعدها، هي طلوع الشمس من المغرب (٢).

وقد روى البخاري بسنده، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا تَكُنْ

ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾) (٣).

ومن نماذج الذين لم تقبل توبتهم عند المعايينة: فرعون، قال تعالى في وصف فرعون: ﴿وَجَنَوْزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَاقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْشِيُّ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٤) ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠ - ٩١]، فلم يقبل الله توبته عند مشاهدة العذاب (٥).

ومن استمر على ذنوبه وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفات راسخة، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة، والغالب أنه لا يوفق للتوبة، ولا ييسر لأسبابها، الذي يعمل السوء على علم تام ويقين وتهاون بنظر الله إليه، فإنه سدّ على نفسه باب الرحمة (٦).

وقوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ تنبيه على نفي القبول عن نوع من التوبة، وهي التي تكون عند اليأس من الحياة (٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الأنعام، باب لا ينفع نفس إيمانها، ١٤ / ١٧٤، رقم ٤٢٦٩.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ٨ / ١٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧١.

(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤ / ٢٨٠.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٨١.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ٣٦٧.

والمعنى واحد؛ لأن من لقيته فقد لقيك، وما نالك فقد نلته.

وقرأ الباقون: ﴿فَلَقَّ أَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتًا﴾ رفع بفعله؛ لأنه تلقى من ربه الكلمات، أي أخذها منه وحفظها وفهمها، والعرب تقول: تلقيت هذا من فلان، المعنى: إن فهمي قبلها منه، وحجتهم ما روي في التفسير في تأويل قوله: ﴿فَلَقَّ أَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتًا﴾ أي قبلها، فإذا كان آدم القابل، فالكلمات مقبولة (٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تأكيد فائدته أن التوبة على العبد إنما هي نعمة من الله، لا من العبد وحده؛ لئلا يعجب التائب، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه (٣).

والتعقيب بالرحيم؛ لأن الرحيم جار مجرى العلة للتواب؛ إذ قبوله التوبة عن عباده ضرب من الرحمة بهم (٤).

٢. توبة نوح عليه السلام.

أخبر سبحانه وتعالى عن توبة نوح عليه السلام في مسأله ربه عن ابنه.

قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٥) قَالَ يَنْتَحِلُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي

(٢) حجة القراءات، ابن زنجلة ص ٩٤ - ٩٥.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١ / ١٣١.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٤٣٩.

نماذج من التائبين في القرآن

أولاً: الأنبياء:

١. توبة آدم عليه السلام.

أخبر الله سبحانه وتعالى أن آدم عصاه بأكله من الشجرة التي نهي عن الأكل منها، قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].

ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه وفق آدم إلى التوبة؛ وذلك بإلهامه قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فتلقاها آدم بالقبول، فتاب الله عليه، وغفر له ذنبه، قال تعالى: ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتًا فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

أي: استقبلها بالأخذ والقبول، والعمل بها حين علمها، ووفق لها (١).

القراءات في قوله تعالى: ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتًا﴾:

قرأ ابن كثير: (فتلقى آدم) بالنصب (كلمات) بالرفع، جعل الفعل للكلمات؛ لأنها تلت آدم عليه السلام، وحجته أن العرب تقول: تلقيت زيداً، وتلقاني زيد،

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١ / ٩٢.

أَعْظَمَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا
تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿هود: ٤٥-٤٧﴾.

«يقول تعالى ذكره مخبراً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم عن إنابة نوح عليه السلام بالتوبة إليه من زلته في مسأله التي سأله ربه في ابنه، قال: رب إني أستجير بك أن أتكلف مسألتك، مما قد استأثرت بعلمه، وطويت علمه عن خلقك، فاغفر لي زلتي في مسألي إياك ما سألتك في ابني، وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتتقذني من غضبك أكن من الذين غبنوا أنفسهم حظوظها وهلكوا»^(١). فحيث ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة، على ما صدر منه.

ودلت الآية على أن نوحاً عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرّم، داخل في قوله: ﴿وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: ﴿أَهْلِكَ﴾، وبعد ذلك تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم، والمراجعة فيهم^(٢).

٣. توبة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.
أخبر سبحانه وتعالى عن إبراهيم

وإسماعيل عليهما السلام أنهما دعوا الله أن يتوب عليهما.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قال الطبري رحمه الله: «فإن قال لنا قائل: وهل كان لهما ذنوب فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟ قيل: إنه ليس أحد من خلق الله إلا وله من العمل فيما بينه وبين ربه ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة. فجائز أن يكون ما كان من قبلهما ما قالاً من ذلك، وإنما خصا به الحال التي كانا عليها من رفع قواعد البيت؛ لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما، وليجعل ما فعلا من ذلك سنة يقتدى بها بعدهما، وتتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصل من الذنوب إلى الله»^(٣).

وقال السعدي رحمه الله: «ولما كان العبد - مهما كان - لا بد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة قالوا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾»^(٤).

٤. توبة موسى عليه السلام.

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه تاب على موسى عليه السلام من مسأله الرؤية في هذه الحياة الدنيا.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٢ / ٥٧٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٦.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢ / ٤٣٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٨٢.

٥. توبة داود عليه السلام.

ذكر الله تعالى نبأ خصمين اختصما عند داود في قضية جعلها الله فتنة له، وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه، وغفر له، وقبض له هذه القضية، فقال لنبیه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَارُوا إِلَى الْحَرَابِ ۖ﴾ (٦) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٧) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٨) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى تِلْكَ فَإِنِّي نَجْمٌ مِنَ النُّجُومِ وَلَئِنِّي لَأَكْفِيكَهَا فَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذْ يَنْتَقِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتُفَعَّلُ لَكَ مِائَةُ نَجْمَةٍ مِمَّا تَتَذَكَّرُ أَلا تَتَكَبَّرُ (٩) فَتَقَرَّرَ بِرَبِّهِ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (١٠) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَنَاقِبَ (١١) [ص: ٢١-٢٥].

فسأل داود ربه غفران ذنبه، وخر ساجداً لله، ورجع إلى رضا ربه، وتاب من خطيئته (٤)، وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها (٥).

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبَقًا فَلَمَّا آفَقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أي: من أن أسألك الرؤية في الدنيا وأنت لا تبيحها (١)، أو إني تبت إليك من سؤال الرؤية بغير إذنك، وأنا أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا، أو يقال: وأنا أول المؤمنين بأنه لا يجوز السؤال منك إلا بإذنك (٢).

قال ابن عاشور رحمه الله: «ولا نشك في أنه سأل رؤية تليق بذات الله تعالى، وهي مثل الرؤية الموعود بها في الآخرة، فكان موسى عليه السلام يحسب أن مثلها ممكن في الدنيا، حتى أعلمه الله بأن ذلك غير واقع في الدنيا، ولا يمتنع على نبي عدم العلم بتفاصيل الشؤون الإلهية قبل أن يعلمها الله إياه؛ ولذلك كان أئمة أهل السنة محقين في الاستدلال بسؤال موسى رؤية الله على إمكانها بكيفية تليق بصفات الإلهية، لا نعلم كنهها، وهو معنى قولهم: «بلا كيف»، وكان المعترلة غير محقين في استدلالهم بذلك على استحالتها بكل صفة» (٣).

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ٤٥٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤ / ٣٥٩.

(٣) التحرير والتنوير، ٩ / ٩١.

(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٠ / ٦٤.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي

٦. توبة يونس عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨].

أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون وهو: يونس، أي: صاحب النون، وهو الحوت، بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمد سمّاه لهم، فجاءهم العذاب ورأوه عياناً، فعجّوا إلى الله، وضجّوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَاءٍ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُ﴾ [الصافات: ١٤٧ - ١٤٨].

وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام، ذهب مغاضباً، وأبق عن ربه لذنوب من الذنوب، التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها؛ لقوله: ﴿إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ آلِفُلْكَ الْمَسْحُورُونَ﴾ [الصافات: ١٤٠].

﴿فَالنَّفَقَةُ الْمَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ٧١١].

١٤٢].

أي: فاعل ما يلام عليه، وظن أن الله لا يضيق عليه في بطن الحوت، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا، من يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصاب القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فآقر لله تعالى بكمال الألوهية، ونزّهه عن كل نقص، وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنابته، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي الشدة التي وقع فيها ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم أن الله تعالى سينجيها، ويكشف عنه ويخفف لإيمانه كما فعل بيونس عليه السلام^(١).

ثانياً: التوبة على الثلاثة الذين خلفوا:

أخبر سبحانه وتعالى عن توبته على الثلاثة الذين خلفوا من الأنصار، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٩.

[الصف: ٥]؛ ليكون هذا أشد تقريرًا للذنب عليهم، وهذا من فصاحة القرآن وبيدع نظمه ومعجز اتساقه.. وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك؛ لأن الشرع يطلبهم من الجدة فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه؛ إذ هم أسوة وحجة للمنافقين والطاعين، إذ كان كعب من أهل العقبة وصاحبه من أهل بدر. وفي هذا ما يقتضي أن الرجل العالم والمقتدى به أقل عذرًا في السقوط من سواه^(٢).

وفي الآية: دليل على أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد.

وقد ذكر البخاري في صحيحه حديث كعب بن مالك وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: سمعت أبي كعب بن مالك وهو أحد الثلاثة الذين تاب عليهم أنه لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط غير غزوتين، غزوة العسرة، وغزوة بدر، قال: فأجمعت صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى، وكان قلما يقدم من سفر سافره إلا ضحى، وكان يبدأ بالمسجد فيركع ركعتين، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلامي وكلام صاحبي، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا، فاجتنب الناس كلامنا،

يخبر سبحانه وتعالى عن الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك - وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع - حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بسعتها غمًا وندمًا على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضاقت عليهم أنفسهم بما نالهم من الوجد والكرب بذلك، وأيقنوا بقلوبهم أن لا شيء لهم يلجئون إليه مما نزل بهم من أمر الله من البلاء بتخلفهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينجيهم من كربه، ولا مما يحذرون من عذاب الله إلا الله. ثم رزقهم الإنابة إلى طاعته، والرجوع إلى ما يرضيه عنهم؛ لينبؤا إليه ويرجعوا إلى طاعته والانتهاة إلى أمره ونهيه، إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفق من أحب توفيقه منهم لما يرضيه عنه، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم التوبة والإنابة ولا يتوب عليه^(١).

قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ لما كان هذا القول في تعديد نعمه بدأ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله عز وجل؛ ليكون ذلك منبهاً على تلقي النعمة من عنده لا رب غيره، ولو كان القول في تعديد ذنب لكان الابتداء بالجهة التي هي عن المذنب، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢ / ٥٤.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣ / ٩٤.

ثالثاً: توبة حفصة وعائشة رضي الله عنهما:

أخبر سبحانه وتعالى عن حفصة وعائشة رضي الله عنهما أنه وجد منهما ما يوجب التوبة حيث مالت قلوبهما إلى محبة ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم، من إفشاء سرّه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرِضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْمَلِيحُ الْخَيْرُ ﴿٣﴾﴾ إِنَّ تَوْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٣-٤].

«يقول تعالى ذكره: إن تتوبا إلى الله أيتها المرأتان فقد مالت قلوبكما إلى محبة ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم من اجتنابه جاريته، وتحريمها على نفسه، أو تحريم ما كان له حلالاً مما حرمه على نفسه بسبب حفصة» (٢).

فلما سمعن -رضي الله عنهن- هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلبثت كذلك حتى طال عليّ الأمر، وما من شيء أهم إليّ من أن أموت فلا يصلي عليّ النبي صلى الله عليه وسلم، أو يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي ولا يسلم عليّ، فأنزل الله توبتنا على نبيّه صلى الله عليه وسلم حين بقي الثلث الآخر من الليل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة في شأني معنيّة في أمري، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أم سلمة، تيب على كعب). قالت: أفلا أرسل إليه فأبشّره، قال: (إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة). حتى إذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا وكان إذا استبشر استنار وجهه حتى كأنه قطعة من القمر، وكنا أيها الثلاثة الذين خلفوا عن الأمر الذي قبل من هؤلاء الذين اعتذروا حين أنزل الله لنا التوبة، فلما ذكر الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المتخلفين واعتذروا بالباطل ذكروا بشراً ما ذكر به أحد، قال الله سبحانه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ (١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة براءة، ١٤ / ٢٤٨، رقم ٤٣٠٩.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٣ / ٩٣.

أي: وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم ونهاكم، من غَضِّ البصر، وحفظ الفرج، وترك دخول بيوت غير بيوتكم من غير استئذان ولا تسليم، وغير ذلك من أمره ونهيه^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا﴾ أمر. ولا خلاف بين المسلمين في وجوبها، وأنها فرض من فرائض الدين^(٣).

وهو دعوة للمؤمنين والمؤمنات إلى التوبة إلى الله، والرجوع إليه من قريب؛ حيث إن الإنسان في هذه المواقف معرض للزلل والعتار، من خطرات نفسه، أو نظرات عينه، أو فحش لسانه، إلى غير هذا مما لا يكاد يسلم منه أحد، وليس لهذا من دواء إلا التوبة إلى الله من كل زلة أو عثرة.. فإن هذه التوبة هي التي تصحح للمؤمن إيمانه، وتبقي على ما في قلبه من جلال وخشية لله رب العالمين^(٤).

وفي الآية: أمر بالتوبة مطلقاً من كل شيء صغير وكبير.

وأمر الله المؤمنين بالتوبة النصوح، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٧ / ٢٧٣.

(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤ / ٣٠.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٩ / ١٢٦٩.

الأسلوب القرآني في الحث على التوبة

تنوعت أساليب القرآن في الحث على التوبة على النحو الآتي:

أولاً: أسلوب الطلب:

قال تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في طلبهما التوبة من الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ استتابة لذريتهما وحكايتها عنهما لترغيب الكفرة في التوبة والإيمان، أو توبةً لهما عما فرط منهما سهواً، قالاه هضماً لأنفسهما وإرشاداً لذريتهما، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وهو تعليلٌ للدعاء، ومزيد استدعاء للإجابة، قيل: إذا أراد العبد أن يستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من أسمائه وصفاته^(١).

ففي هذا الدعاء إرشاد للمؤمنين للاقتداء بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في طلب التوبة من الله تعالى.

ثانياً: أسلوب الأمر:

قال تعالى أمراً عباده بالتوبة مما يقع منهم من تقصير: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١ / ١٦١.

اللَّهُ تَوْبَةً نَّصُوحًا» [التحریم: ۸].

أمر بالتوبة، وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان^(١).

قال العلماء: التوبة النصوح هي: أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لأدمي رده إليه بطريقه^(٢).

وكان من أساليب الرسل في دعوة أقوامهم أمرهم بالتوبة: قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]. أي: خالفكم.

وقال هود عليه السلام أمراً قومه بالتوبة: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

وقال: ﴿وَيَتَقَوَّمُوا رَّبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِكْفَاتِيكُمْ وَلَا تَنَوَّلُوا مَجرِمين﴾ [هود: ٥٢].

وقال صالح عليه السلام أمراً قومه بالتوبة: ﴿وَأَن تَتُوبُوا إِلَىٰ خُلَافَتِهِمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا رَّبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِكْفَاتِيكُمْ وَلَا تَنَوَّلُوا مَجرِمين﴾ [هود: ٥٢].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨ / ١٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨ / ١٩٠.

رَبِّ قَرِيبٌ مُّجِيبٌ» [هود: ٦١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَىٰ اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

قال الفراء: «هذا أمر في لفظ الاستفهام»^(٣).

ثالثاً: أسلوب الترغيب والترهيب:

قال تعالى في سياق الحديث عن المنافقين مرغبا لهم في التوبة، ومرهبا لهم إن أعرضوا عنها كعادة القرآن في ذكر الترغيب بعد الترغيب والعكس: ﴿يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا يُنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَن أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

هو تنبيه لهؤلاء الضالين، وإشارة مضيئة تطلع في ليلهم المطبق عليهم؛ رجاء أن يتوبوا إلى الله، ويستقيموا على طريق الحق، فإن فعلوا رشدوا وأمّنوا، وإن أبوا، ضلوا وهلكوا، وأخذهم الله بالعذاب الأليم في الدنيا، بما يصيبهم على يد المؤمنين من خزي وبلاء، وبعذاب السعير في الآخرة، حيث لا ولي لهم، ولا نصير، يرد عنهم بأس

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢ / ٤٠٩.

الله الواقع بهم^(١).

رابعاً: الأسلوب الخبري:

أخبر سبحانه وتعالى أنه يتوب على عباده كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ وَيَذْهِبَ عَنْكُمُ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

وإظهار اسم الجلالة في قوله: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ﴾ وكان الظاهر إضماره؛ لزيادة العناية بتلك التوبة؛ لما في الإظهار في مقام الإضمار من العناية^(٢).

ومن أمثلة الأسلوب الخبري: الإخبار عن محبة الله للتائبين.

فقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يحب من يرجع إليه تائباً من ذنوبه، وهذا من لطفه بعباده، وحسباً للاقتداء بهم.

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨٤٨ / ٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣٢ / ٢٢.

قال تعالى: ﴿وَسَعَلُونَاكَ عَنِ الْمَجِيزِ قُلْ هُوَ أَذْيٌ فَأَعْتَرَلُوا الْإِنْسَاءَ فِي الْمَجِيزِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

أي: من ذنوبهم على الدوام^(٣).

فهي دعوة إلى التزام الطريق القويم لمن كان قد انحرف عنه، وأتى المرأة من غير المأثى الطبيعي لها، فباب التوبة مفتوح لمن أناب إلى الله والتزم حدوده، فالتوبة تغسل الحوبة.. وليس مصيبة الإنسان في أن يخطيء ويزل، فالإنسان بحكم أنه بشر عرضة للخطأ والزلل، ولكن المصيبة ألا يتأثم من الإثم، ولا يتخرج من الانحراف، فيقيم على إثمه، ويصر على انحرافه، وليس يستنقذ الإنسان من أن يحيط به ذنبه إلا أن يرجع إلى الله من قريب، وأن يلقاه نادماً تائباً، هنالك يجد من ربه رحمة ومغفرة، ورضى ورضواناً^(٤).

وقد روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله أشد فرحاً بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها)^(٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٠.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٢٥٤ / ١.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في المحض على التوبة والفرح بها، ٢١٠٢ / ٤.

ومن أمثلة الأسلوب الخبري: الثناء على التائبين.

فأخبر الله سبحانه وتعالى أن من صفات المؤمنين الذين لهم البشارة بدخول الجنة أنهم الراجعون عما كرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه؛ وذلك حثاً لعباده على الاقتداء بهم.

قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمَدُونَ الْحَمْدُونَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

التائبون: هم الراجعون عن الحالة المذمومة في معصية الله إلى الحالة المحمودة في طاعة الله، والتائب هو الراجع. والراجع إلى الطاعة هو أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين^(١). «والتوبة شعور بالندم على ما مضى، وتوجه إلى الله فيما بقي، وكف عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك. فهي طهارة وزكاة، وتوجه، وصلاح»^(٢).

وفي سياق تهديد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالطلاق وإبداله خيراً منهن من النساء اللاتي من صفاتهن أنهن راجعات

إلى ما يحبه الله من طاعته، حثاً للمؤمنات على الاقتداء بهن في الخيرية، قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَعْبَدْنَ عِندَاتٍ سَخَّرَتْ لَكُنَّ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥].
والتوبة هي الندم على ما وقع من معصية، والاتجاه إلى الطاعة^(٣).

رقم ٢٦٧٥.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨ / ٢٦٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣ / ١٧١٩.

(٣) المصدر السابق، ٦ / ٣٦١٦.

يَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً
وَعِلْمًا فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿غافر: ٧﴾.

أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا
وأناوبوا، وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا
ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك
المنكرات (٢).

٣. المتاع الحسن.

ذكر الله سبحانه وتعالى أن هودًا عليه
السلام دعا قومه أن يسألوا الله أن يغفر لهم
ذنوبهم، ثم يرجعوا إليه نادمين يمتنعهم في
دنياهم متاعًا حسنًا بالحياة الطيبة فيها، إلى
أن يحين أجلهم.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ
يُمِيعَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَتُؤْتِي كُلَّ ذِي
قُضْلٍ قُضْلَهُ. وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

أي: استغفروا ربكم، ثم توبوا إليه،
فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا،
ورزقكم من زيتها، وأنسأ لكم في آجالكم
إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت (٣).
وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في
مواضع متفرقة، قاعدة صحيحة تقوم على
أسبابها من وعد الله، ومن سنة الحياة،

ثمرات التوبة وعاقبة الإعراض عنها

للتوبة إلى الله ثمرات، وللمعرضين عنها
عاقبة، نشاؤلهما فيما يلي:

أولاً: ثمرات التوبة:

ذكر القرآن ثمرات للتوبة؛ لحض العباد
على المسارعة إليها، منها:

١. الفلاح في الدنيا والآخرة.

علّق الله سبحانه وتعالى الفلاح على
التوبة، فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ
الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].
فمن سبل الفلاح التوبة، وهي الرجوع مما
يكرهه الله، ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه
ظاهرًا وباطنًا، ودل هذا أن كل مؤمن محتاج
إلى التوبة؛ لأن الله خاطب المؤمنين جميعًا،
وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله:
﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه،
من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة،
أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة (١).

٢. دعاء حملة العرش للتائبين.

ذكر سبحانه وتعالى دعاء الذين يحملون
عرش الرحمن من الملائكة ومن حول
العرش ممن يحف به منهم، بالمغفرة للذين
تابوا من الشرك والمعاصي.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١١٩.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣١٣.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٦٦.

[الفرقان: ٧٠].

أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم السيئة تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات^(٣)، وهو فيض من عطاء الله لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال، وثاب إلى حمى الله، ولاذ به بعد الشرود والمتهاة^(٤).

وفي الآية دلالة على أن باب التوبة دائماً مفتوح، يدخل منه كل من استيقظ ضميره، وأراد العودة والمآب، لا يصد عنه قاصد، ولا يغلق في وجه لاجئ، أيًا كان، وأيًا ما ارتكب من الآثام.

وقد روى مسلم بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة، يؤتى برجل فيقول: نحوا كبار ذنوبه، وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً، فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب عملت أشياء لا أراها هاهنا) قال: فضحك رسول الله صلى الله عليه

كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون. والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد. وما من أمة قام فيها شرع الله، واتجهت اتجاهًا حقيقياً لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئي عن خشية الله، ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعاً، إلا فاضت فيها الخيرات، ومكن الله لها في الأرض، واستخلفها فيها بال عمران وبالصالح سواء^(١).

ووصف المتاع «بالحسن» إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عز وجل وفي ثوابه وفرحه بالتقرب إليه بمفترضاته والسرور بمواعيده^(٢). وفي الآية دلالة على أن ثمرة الاستغفار والتوبة سعة الرزق ورغد العيش.

٤. إبدال السيئات حسنات.

ذكر الله سبحانه وتعالى أن من تاب من الذنوب توبة نصوحاً وآمن إيماناً جازماً مقرونًا بالعمل الصالح، فأولئك يمحو الله عنهم سيئاتهم ويجعل مكانها حسنات؛ بسبب توبتهم وندمهم.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٨٧.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٥٧٩.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٧١٣.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٤٩.

وسلم حتى بدت نواجذه^(١).

٥. الإمداد بالمطر وقت الحاجة إليه.

أخبر سبحانه وتعالى أن هودًا عليه السلام قال لقومه: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

يقول سبحانه: «فإنكم إن آمنتم بالله، وتبتم من كفركم به، أرسل قطر السماء عليكم، يدرّ لكم الغيث في وقت حاجتكم إليه، وتحيا بلادكم من الجذب والقحط، ورزقكم المال والولد»^(٢).

قيل: إنهم «كانوا أصحاب زروع وبساتين، وعمارات، حراضًا عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين بما أوتوا من هذه القوة والبطش والبأس، مهئين في كل ناحية»^(٣).

في الآية دلالة على أن من ثمرة التوبة حياة البلاد من الجذب والقحط، وحياة العباد بزيادة الأموال والأولاد.

ثانيًا: عاقبة المعرضين عن التوبة:

ذكر القرآن الكريم عاقبة المعرضين عن التوبة، والتي منها:

١. عذاب جهنم.

عرض الله سبحانه وتعالى على من قتل أوليائه التوبة، وهدهم إن لم يتوبوا بالعذاب الشديد، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

أي: ثم لم يتوبوا، أي لم يقلعوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا، ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أوليائه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة^(٤).

وفي الآية تعريض للمشركين بأنهم إن تابوا وآمنوا سلموا من عذاب جهنم^(٥).

٢. استحقاق العقاب.

وأخبر سبحانه وتعالى أن على العبد أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله، والاستغفار، والمدح له مقابل ذمه، وإلا أصبح ظالمًا لنفسه مستحقًا لعقاب الله.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب، ما أدنى أهل الجنة منزلة، رقم ٣٠٨.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٢ / ٤٤٤.

(٣) البحر المحیط، أبو حيان ٦ / ١٦٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨ / ٣٦٥.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠ / ٢٤٦.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نُفْسًا مِّنْ نَّفْسِكُمْ أَن يَكُنْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بَلِّغُوا إِلَيْكُمْ الْفُتُورَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، «يقول تعالى ذكره: ومن لم يتب من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب، أو لمزه إياه، أو سخريته منه، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها عقاب الله بركوبهم ما نهاهم عنه»^(١).

وإذا كان كل من السخرية واللمز والتنازع معاصي فقد وجبت التوبة منها، فمن لم يتب فهو ظالم؛ لأنه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة مع التمكن من الإقلاع عن ذلك، فكان ظلمه شديداً جداً. فلذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم، كأنه لا ظالم غيرهم؛ لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا. والتوبة واجبة من كل ذنب، وهذه الذنوب المذكورة مراتب، وإدمان الصغائر كبيرة^(٢).

٣. العذاب الأليم في الدنيا والآخرة. دعا الله سبحانه المنافقين الذين أساءوا

لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَافِلُوا الْإِضْرَارَ بِهِ وَارْتَدُوا عَنِ الْإِسْلَامِ أَن يَرْجِعُوا إِلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ، فَإِنْ رَجَعُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُمْ، وَإِنْ عَرَضُوا، أَوْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى حَالِهِمْ، يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْمَوْجِعَ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ، وَفِي الْآخِرَةِ بِنَارِ جَهَنَّمَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنَّ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِن يَسْتَوُوا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

أي: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ أي: بالقتل والهلم والغم، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار، ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، لا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً^(٣).

وفي الآية دليل على قبول توبة الزنديق المسرّ الكفر، المظهر للإيمان، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي. وقال مالك: لا تقبل، فإن جاء تائباً من قبل نفسه قبل أن يعثر عليه قبلت توبته بلا خلاف^(٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤ / ١٦١.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان، ٥ / ٤٦٦.

(١) جامع البيان، الطبري، ٢١ / ٣٧٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦ / ٢٥٠.

٤. العذاب الكبير.

دعا هود عليه السلام قومه للرجوع إلى الله نادمين، وهذّدهم إن أعرضوا عما يدعوههم إليه فسوف يحلّ عليهم عذاب كبير، وهو يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَأَنۢ أَسْتَغْفِرُوا۟ لَكُمْۜ ثُمَّ تُوْبُوا۟ إِلَيْهِ يَمَتِّعْكُمْ مِّنۢنَّآ حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِيَ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥٓ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

«يقول تعالى ذكره: وإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من إخلاص العبادة لله، وترك عبادة الآلهة، وامتنعوا من الاستغفار لله، والتوبة إليه فأدبروا مولين عن ذلك، فإني أيها القوم أخاف عليكم عذاب يوم كبير شأنه، عظيم هوله»^(١)، ووصفه بالكبير لزيادة تهويله^(٢).

موضوعات ذات صلة:

الاستغفار، الاستقامة، الذنب

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢ / ٣١٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١ / ٣١٩.

